امرأة فرعون

قصص النساء في القرآن

[9] امرأة فرعون

وقد ورد ذكرها في قوله تعالى: {وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ} [التحريم: ١١]؛ وهي آسية بنت مزاحم، ولم يكن لها ولد، وقيل هي التي سمّت موسى بهذا الاسم، لأنه وُجد بين ماء وشجر، أظهرت إيمانها يوم الزينة، فأمر فرعون أن توتد على ظهرها أوتاد، وأن ترضخ بصخرة عظيمة إن لم ترجع، فقالت {رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ} [التحريم: ١١]؛ فاختارت الجار قبل الدار.

***

موجز القصة:

انظر أخي الحبيب إلى عظمة عبادة الله تعالى وإلى حب الله عز وجل؛ هذه المرأة الصالحة نشأتْ ملكة في القصور، واعتادتْ حياة الملوك، ورأتْ بطش القوة، وجبروت السلطان، وطاعة الأتباع والرعية، غير أن الإيمان أضاء فؤادها، ونوَّر بصيرتها، فسئمتْ حياة الضلال، واستظلتْ بظلال الإيمان، ودعتْ ربها أن ينقذها من هذه الحياة، فاستجاب ربها دعاءها، وجعلها مثلا للذين آمنوا، فقال: {وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١} [التحريم: ١١].

إنها آسية بنت مزاحم - امرأة فرعون - التي كانت نموذجًا خلّده القرآن للمؤمنة الصادقة مع ربها، فهي عندما عرفت طريق الحق اتبعته دون خوف من الباطل، وظلم أهله، فلقد آمنت باللّه إيمانًا لا

يتزعزع ولا يلين، ولم تفلح تهديدات فرعون ولا وعيده في ثنيها عن إيمانها، أو إبعادها عن طريق الحق والهدي. لقد تاجرتْ مع اللَّه تعالى، فربحَتْ تجارتها، باعتْ الجاه والقصور والخدم، بثمن غال، ببيتٍ في الجنة.

وقد جاء ذكر السيدة آسية - رضي اللَّه عنها - في قصة موسى - عليه السلام - حينما أوحى اللَّه إلى أُمِّه أن تُلْقيه في صندوق، ثم تلقى بهذا الصندوق في البحر، وفيه موسى، ويلْقِى به الموج نحو الشاطئ الذي يطلّ عليه قصر فرعون؛ فأخذته الجواري، ودخلن به القصر، فلما رأت امرأة فرعون ذلك الطفل في الصندوق؛ ألقى الله في قلبها حبه، فأحبته حبًّا شديدًا.

وجاء فرعون ليقتله - كما كان يفعل مع سائر الأطفال الذين كانوا يولدون من بنى إسرائيل - فإذا بها تطلب منها أن يبقيه حيا؛ ليكون فيه العوض عن حرمانها من الولد. وهكذا مكن اللَّه لموسى أن يعيش في بيت فرعون، قال تعالى:{وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} [القصص: ٧ - ٩].

وكانت السيدة آسية ذات فطرة سليمة، وعقل واعٍ، وقلب رحيم، فاستنكرت الجنون الذي يسيطر على عقل زوجها، ولم تصدق ما يدعيه من أنه إله وابن آلهة.

وحينما شَبَّ موسى وكبر، ورحل إلى " مدين "، فرارًا من بطش فرعون وجنوده ثم عاد إلى مصر مرة أخرى - بعد أن أرسله اللَّه - كانت امرأة فرعون من أول المؤمنين بدعوته.

قال المفسرون: لما غلب موسى السحرة آمنت امرأة فرعون ولما تبين لفرعون إسلامها جن جنونه، فكيف تؤمن زوجته التي تشاركه حياته، وتكفر به، فقام بتعذيبها حيث عَزَّ عليه أن تخرج زوجته على عقيدته، وتتبع عدوه، فأمر بإنزال أشد أنواع العذاب عليها؛ حتى تعود إلى ما كانت عليه، لكنها بقيت مؤمنة بالله، واستعذبت الآلام في سبيل اللَّه؛ فأوتد هذا اللعين في الدنيا والآخرة يديها ورجليها بأربعة أوتاد وألقاها في الشمس، وهى صابرة محتسبة على ما تجد من أليم العذاب، ثم أمر بوضع رحًى على صدرها، وأن تُلقى عليها صخرة عظيمة، لكنها دعتْ ربها أن ينجيها من فرعون وعمله.

قال سلمان: كانت امرأة فرعون تعذب بالشمس فإذا انصرفوا عنها ظللتها الملائكة: {إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ} [التحريم: ١١]، فاختارت الجار قبل الدار، فكشف الله لها عن بيتها في الجنة حتى رأته، وفي القصة أن فرعون أمر بصخرة عظيمة لتلقى عليها، فلما أتوها بالصخرة قالت: رب ابن لي عندك بيتا في الجنة فأبصرت بيتها في الجنة من درة بيضاء، وانتزع روحها فألقيت الصخرة على جسد لا روح فيه، ولم تجد ألما.

وقال الحسن وابن كيسان: رفع الله تعالى امرأة فرعون إلى الجنة فهي فيها تأكل وتشرب{وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ} [التحريم: ١١]، قال مقاتل: وعمله يعني الشرك.

وقال أبو صالح عن ابن عباس: وعمله، قال: جماعة. **ونجني من القوم الظالمين**؛ أي: الكافرين.

يؤخذ من هذه القصة ما يلي:

أولا: قد يكون الزوج وباء على زوجته؛ فهذا فرعون الكافر اللعين كان وباءا على زوجته، ولذلك طلبت زوجته من ربها أن ينجيها منه ومن عمله؛ وصدق الله حيث يقول:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾} [التغابن: ١٤]؛ فيجب على كل امرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تختار الرجل الصالح الذي يكون قدوة لها في دينها فإن الدين هو كل شيء بالنسبة للإنسان؛ فهو سبب سعادته في الدنيا وفي الآخرة.

وأنا أتعجب اليوم من أولئك الذين يزوجون بناتهم لشخص لا يصلي، بل قد يكون سارق أو زان أو شارب خمر أو... أو.... وهذا من الأسف والحزن، فإن على ولي المرأة أن يختار لها من يساعدها على إقامة دينها، أما أن يزوجها لشخص لا يعرف الله تعالى فإنه لا يأمن من أن يفتنها في دينها. نسأل الله السلامة والعافية.

ثانيا: هذا الكافر مع ظلمه لربه بالكفر وظلمه لنفسه بارتكاب المعاصي وظلمه للناس بالتعذيب والتنكيل أشد العذاب ظلم زوجته التي هي سكنه ومستقر راحته، وهنا وقفة مع كل مسلم يتقي الله تعالى ويعلم علم اليقين أنه ملاقيه أن يتقي الله في زوجاته ويعاملهم المعاملة الحسنة التي قامت عليها الشريعة الإسلامية، وتأمل في هذا الحديث الذي رواه لنا الصحابي البر أبو هريرة ☺ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"**من كانت له امرأتان فما إلى إحداهما جاء يوم**

القيامة وشقه مائل -. رواه الأربعة، وسنده صحيح. دل هذا الحديث على الوعيد على من حاد إلى إحدى الزوجات وجار في حق الأخرى؛ فلو فضل أحد زوجته على الأخرى في المبيت أو النفقة أو الكسوة أو السكن فإنه يكون قد ارتكب كبيرة من الكبائر؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم علق على هذا الميل أنه يأتي وشقه مائل عقوبة له؛ فالجزاء من جنس العمل؛ فالميل إلى إحدى الزوجات دون الأخرى ظلم وعدوان؛ فيجب على كل مسلم إذا كان عنده زوجتان فأكثر أن يتقي الله تعالى ويعدل بينهن كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعدل.

ولبعض أهل العلم وجهان في قوله صلى الله عليه وسلم :"**جاء وشقه مائل** -؛ فقال بعضهم: كفة سيئاته ترجح على كفة حسناته، وهذا هلاك وبلاء للعبد؛ لأنه إذا ثقلت موازين الخير نجا وأفلح، وإن ثقلت موازين الشر والمظالم هلك وخسر. نسأل الله تعالى السلامة والعافية.

وقال بعضهم: بل يخرج من قبره مشلولا في نضف جسده؛ فكما أنه لم يعدل بين زوجاته وظلم بينهن جعل الله تعالى هذا الشلل من جنس العمل.

كما أن ظلم الزوجات أعظم من ظلم الأغراب؛ لأن ظلم القريب ظلم وقطيعة رحم، أما ظلم الغريب فإنه مجرد ظلم فقط، والله تعالى حرم الظلم على نفسه؛ فقال عز وجل: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظلموا؛ أي: لا يظلم بعضكم بعضا، وحذر من العواقب الوخيمة في كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ قال صلى الله عليه وسلم : "**اتقوا الظلم فإنه ظلمات يوم**

القيامة -، والظلم بين الزوجات عظيم، وإنما يشدد في مثل هذا الظلم والتنبيه على أمره؛ لأن كل من نظر إلى العواقب المترتبة على تفضيل الزوجات أدرك أن الأمر خطيرا؛ فإن الزوجة إذا نظرت إلى ميل زوجها إلى ضرتها، وعدم مبالاته بحقوقها انكسر خاطرها، ولربما أصبحت في شدة وحزن وألم؛ فالغيرة من جهة التي لا تملكها من نفسها، وقد حدثت بين أمهات المؤمنين فضلا عن غيرهن ثم يأتي الظلم ليزيد النار في القلوب اشتعالا، فتمسي وتصبح وهي تكتوي بنار الظلم، يبيت عند ضرتها ولا يبيت عندها، ويقضي حوائج ضرتها ولا يقضي حوائجها، ويسأل عن ضراتها وعن أولادها ويحسن إليهم ويهش ويبش في وجوههم، ولكن ما إن تدخل هذه المسكينة إلا عبس في وجهها ونكد عليها أمرها ونغص عليها عيشها ولم يبالي بشيء من أمرها، ولربما مكث الأيام ذوات العدد بل لربما مكث الشهور بل ولربما مكث السنين وهو لا يقرب بيتها ولا يطأ فراشها، وكل هذا بسبب الجهل بحدود الله تعالى أو الجرأة على محارم الله تعالى، ومن هنا لم يأمن أصحاب هذه النفوس الظالمة من العواقب الوخيمة التي انتهت بهم بسبب الدعوات من النسوة المظلومات في ضياع حقوقهم والأذية والإضرار بهم.

من نظر إلى ظلم الزوجات ووضعوه الأليم في النفوس، فالمرأة دخلت إلي بيت الزوجية وكلها أمل أن تجد زوجا يجبر خاطرها ويكرم عشرتها، دخلت إلى بيت الزوجية من أجل أن تكرم لا أن تهان، من أجل أن تبني بيتا تحس فيه بالراحة والطمأنينة، وترى في أولادها وفي زوجها حياة سعيدة ولربما تفاجئ به بعد سنين من العمر ولربما مكثت معه عشرات السنين حتى إذا ضعفت وخارت

قواها أو ذهب جمالها جاء وتزوج عليها، ثم لم يبالي بما بينه وبينها فينسي حياته معها وينسى الذمة وينسى العشرة، ويصبح لئيم الطبع ناسيا للمعروف متنكرا للفضل والجميل، ولربما تكون الزوجة محل احترام وتقدير عند زوجها وذلك لوجود أبيها أو أخيها القوي فإذا توفي أبوها أو مات أخوها ومن يفق معها تزوج عليها ثم أصبح لا يبالي بشيء من أمرها وعندها ترى الظلم في جميع صوره وأحواله أشد ما يكون قسوة على هذه المرأة الضعيفة التي ربما تعاني هذا الظلم والأذية والإضرار في آخر عمرها؛ فلا تدري أهي تعتني بنفسها فيما تجد في آلام جسدها وضعفها وكبرها أم تنظر إلى هذه الآلام النفسية، ولربما كان ألمها من زوجها أعظم من الآلام التي تجدها في جسدها.

إن ظلم الزوجات وعدم المبالاة بحقوقهن وعدم المبالاة بمشاعرهن أمر عظيم، وكثير من الناس يجهل ما ورد في كتاب الله عز وجل وسنة النبي صلى الله عليه وسلم من الهدي الذي يحذر من حقوق النساء، وأنه ينبغي على المسلم أن يعرف ما معني الزواج، وما معنى أن يبني بيتا من بيوت الزوجية، وما معنى أن يتكفل بحقوق الزواج ويحملها على ظهره لكي يلقى الله جلا وعلا بها، ولذلك عظم السلف الصالح رحمهم الله تعالى أمر التعدد، وكانوا يخافون منه خوفا شديدا؛ فكانوا يخافون في حقوق الزوجات، فإذا بالواحد يراقب نفسه حتى في مشاعره إذا اجتمعت زوجاته، ويراقب نفسه حتى في أفعاله وتصرفاته.

وهذا معاذ بن جبل ☺ حافظ القرآن، إمام من أئمة الصحابة ♦ كانت له زوجتان، وكان لا يتوضأ في بيت الثانية إذا كانت الليلة

للأولى كله خشية أن يكون مفضلا لها بشيء على أختها وضرتها، وشاء الله عز وجل يبتليه فتوفيت الزوجتان في طاعون الشام المعروف، فماتت الزوجتان في يوم واحد، ولما قام بشأنهما وصلي عليهما وأراد أن يدفنهما وقف ☺ وهذا من فقهه وعلمه وورعه، وهكذا كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يفقهون النصوص ويفقهون ماذا يراد من أمر الله تعالى وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم، فوقف هذا الصحابي الجليل أما القبرين، فأي الزوجتين يبدأ بها؟

أيبدأ بالكبرى رعاية لحقها أم يبدأ بالصغرى رعاية لضعفها؟

لا يدري بأيهما يبدأ حتى أقرع بين الزوجتين لكي لا يلقى الله تعالى وقد مال قلبه إلى واحدة منها، وبقي على هذا الوفاء حتى بعد وفاتهما، وبقي على العدل الذي قامت عليه السماوات والأرض حتى في آخر لحظة يريد أن يواري الجسدين عن هذه الدنيا، وهذا كله مما كان أدبا من آداب النبوة، ومما كان معنا من معاني المدرسة التي تربى فيها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على يدي معلم الأمة صلوات الله وسلامه عليه.

وعلى هذا أجمع العلماء رحمهم الله تعالى على وجوب العدل بين الزوجتين، والعدل يتحقق في أمور، حتى كان السلف الصالح رحمهم الله تعالى لا يفضلون الزوجة على الزوجة حتى في الأولاد، ويراعون العدل حتى في الأولاد في القبل، فلا يقبل ابنا إلا قبل أخاه خشية أن يكون مفضلا لقرين على قرين، وعلى هذا أجمع السلف والخلف كما قلنا على وجوب العدل بين الزوجات إلا إذا وجد موجب شرعي لتفضيل إحدى الزوجتين على غيرها.

قال علماؤنا: إذا كان عند الرجل زوجتان فأكثر فإنه يجب عليه العدل بينهما؛ قال الله سبحانه وتعالى:{فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ} [النساء: ٣]؛ والعدل بين الزوجات على قسمين:

الأول: عدل يستطيع الإنسان عليه؛ وهو عدل النفقة ومستلزماتها؛ فهذا العدل يجب عليه؛ فلا يجوز أن يزيد واحدة على أخرى.

الثاني: عدل لا يستطيع عليه الزوج؛ وهو الحب والميل القلبي؛ فهذا لا يستطيع عليه الزوج؛ فلا يلام فيه إذا كان يحب بعض نسائه أكثر من محبة الأخرى؛ ولهذا قال سبحانه وتعالى:{ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا } [النساء: ١٢٩]؛ فالمراد بالعدل هنا هو المحبة والميل القلبي، والمراد بالعدل في أول السورة العدل في النفقة وتوابعها.

قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي: هذا العدل الذي ذكر تعالى هنا أنه لا يستطاع هو العدل في المحبة، والميل الطبيعي ؛ لأنه ليس تحت قدرة البشر بخلاف العدل في الحقوق الشرعية فإنه مستطاع؛ وقد أشار الله تعالى إلى هذا بقوله:{فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ} [النساء: ٣]؛ أي: تجوروا في الحقوق الشرعية. والقسم بين الزوجات لا بد أن يتضمن ما يلي:

أولا: المبيت عند كل واحدة ليلة.

ثانيا: العدل في النفقة.

ثالثا: العدل في السكن.

رابعا: العدل في الكسوة.

قال علماؤنا: هذه الأمور الأربعة لا بد من العدل فيها، وأولاها المبيت؛ أي بالليل، أما من كان عمله بالليل؛ فهذا يكون القسم عنده بالنهار. والسبب في هذا أن عدم العدل وهذا كسر للخواطر سبب للفتنة والشحناء وحصول الضرر العظيم المترتب على البغضاء، فتنفر النفوس، ويحصل بين الزوجات ما لا يحمد عقباه، ثم تنتقل هذه العداوة إلى الأولاد والأخوة؛ وحينئذ يكون الشر بين أولى القربى، ولذلك كان منهج الشرع حكيما في تنبيه المسلمين، وتنبيه الأزواج على وجوب العدل بين الزوجات.

وبين الله تعالى أن حل نكاح الزوجة الثانية والثالثة والرابعة موقوف على العدل؛ قال الله سبحانه وتعالى:{فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ} [النساء: ٣]؛ أي: ذلك أقرب ألا تجوروا في الحقوق.

ومن هنا وجب على من عدد وأخذ الزوجة الثانية أو الثالثة أو الرابعة أن يتقي الله تعالى فيهن، وأن يعدل في قسمه بينهن، وأن يراعي هذا الحق حق رعايته.

تمت القصة بعون الله تعالى

* * *